

الرؤية الحضارية لعلي شريعتي

The civilization worldview of Ali Shariati

فطيمة بوالطين¹

مخبر الدراسات العقدية ومقارنة الأديان

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية - قسنطينة -

boutinej@gmail.com

احسن برامة

مخبر الدراسات العقدية ومقارنة الأديان

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية - قسنطينة -

BARAMA.AHCENE@yahoo.fr

تاريخ الوصول 2020/02/12 القبول 2020/11/28 النشر على الخط 2021/09/30

Received 12/02/2020 Accepted 29/11/2020 Published online 30/09/2021

ملخص:

تناول علي شريعتي مسألة الحضارة في العالم الإسلامي باعتباره مفكراً مسؤولاً أمام نفسه وأمام الواقع أيضاً، وقد اعتمد على الرؤية الكونية التوحيدية في صياغة النموذج المطلوب، ولا يتم هذا إلا بالانطلاق من مقومات الحضارة الإسلامية؛ ديناً وتراثاً من جهة، وبالتفاعل مع الواقع ومتطلباته من جهة أخرى، خاصة بالنظر إلى التحديات التي تواجهها الأمة الإسلامية على المستويين الداخلي والخارجي، مما يجعل من تفعيل عناصر البناء فيها وإحيائها حماية لهويتها الحضارية وحفظاً للعناصر التي تشكلها. لذلك فشريعتي انطلق من مبادئ الهوية الإسلامية في تشكيل ملامح مشروع الحضاري، والذي ميزه حضور البعد الديني فيه، وهذا لا يعني التملص من الإخفاقات التي واجهت الحضارة الإسلامية بقدر ما يعني مساءلتها وتصحيحها من أجل بناء الإنسان والمجتمع والحضارة.

الكلمات المفتاحية: الرؤية الحضارية، علي شريعتي، دين، توحيد، حضارة.

Summary

Ali Shariati discussed the topic of civilization in the Islamic world as a thinker responsible towards himself and reality as well. He relied on the monotheistic worldview in formulating the required model, this can only be done by starting from the foundations of the Islamic civilization; religion and heritage from one hand and by interacting with reality and its requirements on the other hand. Especially in regards to the challenges that the Islamic Ummah (nation) faces at an internal and external level, which makes activating the elements of building and reviving to protect its civilized identity and preserve the elements that form it. Thus, Shariati began from the Islamic principles identity in shaping the features of his civilization project, which was characterized by the presence of the religious range within it. This does not mean evading the failures the

¹ - المؤلف المرسل: فطيمة بوالطين البريد الإلكتروني: boutinej@gmail.com

Islamic civilization faced as much as it means taking accountability and corrections in order to build people, society and civilization.

Key words: Vision of civilization, Ali Shariati, religion, monotheism, civilization.

مقدمة

برزت على الساحة الفكرية الإسلامية العديد من الطروحات التي اعتنت بإشكالية الحضارة في الإسلام والواقع المعاصر، باعتبار التفاعل مع التخلف كظاهرة ميزت معظم الدول الإسلامية على مختلف الأصعدة من جهة، وبالنظر كذلك إلى التجربة الحضارية الإسلامية وما خلفته من تراث عظيم من جهة أخرى، لذلك كانت العناية بها من سمات الفكر الإسلامي المعاصر بحثاً ومناقشة ودراسة وتحليلاً من أجل فهم هذا الفصام ومعرفة مسبباته الحقيقية التي تتخذ مظاهر شتى وصلات متشعبة مع كل مناحي الحياة. ويعد المفكر الإيراني علي شريعتي¹ من أبرز الوجوه الفكرية التي اعتنت بإشكالية الحضارة في الفكر والحضارة الإسلاميين، وهذا وجه من أوجه التفاعل مع متطلبات عصره وما يطرحه سؤال الواقع أيضاً، وإن كانت مسألة الحضارة بالغة الأهمية سواء داخل الدين الإسلامي أو خارجه لأنها ترتبط بماضي الأمم وحاضرها ومستقبلها وفق نسق هويتها، فإنها أيضاً تعبر عن رؤيتها الكونية بشكل عام، وهنا يكمن الفرق بين كل أمة وأخرى؛ في الكيفية التي ترى بها نفسها، وغيرها، والعالم. ويقوم كل هذا على الخصائص الثقافية الذاتية التي تصنع الوجه الحضاري.

وبالنظر إلى ما قدمه علي شريعتي فإنه قد تناول الموضوع من نواحي مختلفة ومتعددة، ويمكن إرجاع هذا التنوع إلى الطريقة التي تشكل بها فكره ومنهج تفكيره أيضاً، فنشأته في بيت من بيوت العلم، وتأثره بوالده الذي كان من رجال الدين الفاعلين في المجتمع، ثم اندماجه في النشاطات الطلابية والسياسية والأدبية المختلفة ومعارضته للنظام القائم، وبعدها سفره إلى فرنسا، وهي نقطة مهمة في فهم بناء الفكرية التأسيسية، حيث كانت هذه المرحلة محورية في تشكيل شريعتي المفكر، خاصة وأن فرنسا في تلك الفترة - الستينيات والسبعينيات من القرن الماضي - قد جمعت مختلف التوجهات العرقية والدينية والسياسية ناهيك عن حركات التحرر، في سجلات واسعة. وكان هذا بمثابة المنبع الذي استقى منه شريعتي أسسه المعرفية التي قام عليها مشروعه الفكري ككل.

¹ - علي شريعتي هو مفكر إيراني معاصر، ولد في "مزنيان" وهي قرية صغيرة تقع في منطقة خراسان سنة 1933م، والده محمد تقي شريعتي وهو عالم دين من كبار المفكرين الإسلاميين، وهو مؤسس مركز الحقائق الإسلامية الذي اهتم بالإصلاح الديني، ومن هنا انخرط شريعتي في المجال الفكري والإصلاحي في سن مبكرة، لينضم بعد ذلك إلى جناح الشباب في الجبهة الوطنية وهو لم يزل صبياً، ثم إلى حركة المقاومة، وقد سجن بسبب ذلك وهو لم يكمل دراسته الجامعية بعد. في سنة 1959 أرسل في بعثة طلابية إلى فرنسا، وكانت السنوات التي قضاها هناك من أخصب السنوات في حياته، بسبب نشاطاته الفكرية والسياسية، وقد عاد إلى إيران في منتصف الستينيات وعين أستاذاً بجامعة مشهد التي تعرض فيها للكثير من العراقيل بسبب أفكاره وتوجهه العام. وفي سنة 1969 افتتحت حسينية الإرشاد والتي كانت منبراً هاماً لشريعتي من خلال نشاطاته ومحاضراته عن الإسلام والتشيع والتصحيح الذي انتهجه، إضافة إلى التعبئة الفكرية والسياسية التي قام بها في أوساط الشباب، أغلقت الحسينية سنة 1973، وسجن شريعتي على إثر ذلك، وقد أفرج عنه سنة 1975 بتدخل من مسؤولين جزائريين، لكنه وضع تحت المراقبة ومنع من ممارسة أي نشاط، سافر إلى لندن سنة 1977، وبعد شهر من سفره عثر عليه ميتاً، ونقل جثمانه إلى دمشق ودفن في الحرم الزينبي بعد منع السلطة لدفنه في إيران. ينظر: علي شريعتي، العودة إلى الذات، تر إبراهيم الدسوقي شتا، دار الأمير، بيروت، ط2، 2007، ص 8-14.

وبالتالي فتفاعل شريعتي مع أحداث عصره، بكل التجارب التي خاضها داخل إيران وخارجها من جهة، والإرث الحضاري الإسلامي من جهة أخرى، أنتج رؤيته الحضارية التي ميزته عن غيره، ويرجع هذا إلى عمق طرحه على مستويين؛ الأول متعلق بالقضايا التي ناقشها، والثاني بالمنهج الذي سار عليه في بيان ذلك، وكل هذا مرتبط لديه بالهوية الإسلامية التي لم يتنكر لها، بل حاول تحديثها إن صح هذا التعبير، والتحديث في هذه الحالة لا يعني تجاوز الماضي بكل ما يزرع به من تراث، بل العناية بسؤال الواقع ومرحلته ومتطلباته أيضاً، وفق ما تمليه معطيات المكان والزمان، وهذا ما ينقل المفكر من القوة إلى الفعل. ما يجعلنا أمام سؤال محوري كيف كانت رؤية شريعتي الحضارية؟ من حيث المنطلقات والنتائج بصفة خاصة؟ وللإجابة عن ذلك يعتمد البحث على ثلاث نقاط محورية؛ تصور شريعتي للأزمة الحضارية المعاصرة، والمقومات التي تنبني عليها الحضارة وفق رؤية شريعتي، ثم نتائج ذلك وانعكاساتها على مستوى الفكر الإسلامي وقضاياها.

أولاً: تصور شريعتي للأزمة الحضارية المعاصرة

تعتبر الحضارة بمثابة «نظام اجتماعي يعين الإنسان على الزيادة من إنتاجه الثقافي، وإنما تتألف الحضارة من عناصر أربعة: الموارد الاقتصادية، والنظم السياسية، والتقاليد الخلقية، ومتابعة العلوم والفنون، وهي تبدأ حيث ينتهي الاضطراب والقلق، لأنه إذا ما أمن الإنسان من الخوف، تحررت في نفسه دوافع التطلع وعوامل الإبداع والإنشاء، وبعدئذ لا تنفك الحوافز الطبيعية تستنهضه للمضي في طريقه إلى فهم الحياة وإزهارها»¹، ولا يتم هذا إلا بما عبر عنه ابن خلدون بال عمران البشري والاجتماع الإنساني²، لأن الحضارة «هي ثمرة كل جهد يقوم به الإنسان لتحسين ظروف حياته، سواء أكان المجهود المبذول مقصوداً أو غير مقصود، وسواء أكانت الثمرة مادية أم معنوية»³، وهذا يخص ما ينتجه الإنسان على الصعيد المادي وما يحرك ذلك من فلسفة ورؤية معنوية، أما عن الحضارة في رؤية شريعتي فهي «عبارة عن مرحلة فكرية وروحية متعالية للإنسان أو المجتمع، وفي الواقع هي معرفة ذاتية وإنسانية وسياسية (وهذه ميزات حضارة الفرد). و(النظام) والحضارة جهة مشتركة حيث إن الأفراد فيها تكون فرديتهم منصهرة في المجتمع، ويأخذون شخصيتهم من ذلك المجتمع، وهذا هو شاخص أو ميزة الحضارة الاجتماعية»⁴، كما أن الحضارة تقوم على العطاءات والأرصدة المادية والمعنوية للإنسانية. ولا يتعلق هذا بقوم أو جماعة أو جنس معين، بل إنها مشتركة بين جميع أفراد الإنسانية، لأنها تعكس وجه التأريخ الإنساني لجميع الأقسام البشرية⁵. والمقصود بالعطاءات المادية هي كل ما أنتجه الإنسان مقابل عالم الطبيعة الذي لم يصنعه، بينما العطاءات المعنوية فلا تتعلق بعالم المادة، ومثال ذلك الشعر والأدب، أو عبارة أدق الثقافة. وبالتالي فإن شريعتي يوازن بين الجانبين المادي والمعنوي في تشكيل تصوره عن مفهوم الحضارة، خاصة وأنه في هذا المفهوم بالذات لا يفرق دينياً بين الإسلام وغيره

¹ - ول ديورانت، قصة الحضارة، ترجمة زكي محمود، دار الجيل للطبع والنشر والتوزيع، بيروت، المنظمة العربية للتربية والثقافة والفنون، تونس، ج1، ص1، مج1، ص3.

² - عبد الرحمن بن خلدون، مقدمة ابن خلدون، دار ابن الجوزي، ط1، 2010، ص31

³ - حسين مؤنس، الحضارة دراسة في أصول وعوامل قيامها وتطورها، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1978، ع1، ص13

⁴ - علي شريعتي، تاريخ الحضارة، ترجمة حسين نصيري، دار الأمير للثقافة والعلوم، بيروت، مؤسسة نشر آثار الدكتور علي شريعتي، طهران، ط1428، هـ - 2007م، ص93

⁵ - علي شريعتي، المصدر السابق، ص18

من الأديان، باعتبار الحضارة ظاهرة إنسانية وليست ظاهرة دينية، وهذا لا يعني بالضرورة إلغاء دور الدين فيها. ويمكن فهم الحضارة من خلال «التفكير والعقيدة والثقافة ودرجة الإحساس وبعد النظر في الكون والضمير الاجتماعي، ونسبة المعرفة الذاتية والإحساس بالمسؤولية والهدف وكذلك الفكرة والمعرفة السياسية للأفراد، حتى ولو كانت الحياة المادية والتكنولوجية في مستوى غير مطلوب.. وإذا كان مفكرو العالم الثالث في آسيا وإفريقيا وأمريكا اللاتينية ينظرون إلى الحضارة بأنها تمثل نمو التكامل المعنوي للإنسان، فعليهم أن يجدوا طريقاً آخر لبناء وتوعية الشعوب غير ذلك الطريق الذي ينقلون بواسطته الحضارة الأوروبية ويحملونها هذه الشعوب، لأن الحضارة لا تصدر من بلد لآخر، بل تمثل حالة توهج وعلم واطلاع ذاتي وخلق وإعجاز يجب أن تظهر في الإنسان»¹. وبالتالي فاستيراد مظاهر الحضارة الأوروبية وتجسيدها لا يخلق أمة متحضرة، بل يكرس التقليد بطريقة مبتذلة لا تراعي خصوصيات الذات الثقافية وإمكانية بنائها الحضاري متى ما فعلت العوامل المحركة لها.

كما أن «حضارة ما هي نتاج فكرة جوهرية تطبع على مجتمع في مرحلة ما قبل التحضر الدفعة التي تدخل به التاريخ. ويبنى هذا المجتمع نظامه الفكري طبقاً للنموذج الأصلي لحضارته. إنه يتجذر في محيط ثقافي أصيل يحدد سائر خصائصه التي تميزه عن الثقافات والحضارات الأخرى»².

لذلك فإن امتلاك الوسائل التي تمثل الحضارة الغربية - على سبيل المثال لا الحصر - هو صورة للعجز الذي تعاني منه الأمة الإسلامية، لأن التحضر لا تصنعه وسائل مادية بقدر ما ينتج عن الكيفية التي تصنع الإنسان الفاعل وجعله منتجا لمختلف تجليات الحضارة وأدواتها. لذلك فإن «التغيير الذي يجب أن يحصل للإنسان والمجتمع فيجب أن لا يكون في الوسائل والأدوات الحياتية الحديثة التي يستخدمها فقط، بل يجب أن يكون في الفكر والعقلية للإنسان والمجتمع، حتى يمكنه أن يصل إلى تلك المرحلة الفكرية الحضارية، لأن تغيير الوسائل دون تغيير العقلية والفكر الإنساني لا تحصل منه فائدة، لأننا يجب أن نحصل على العقلية والفكر المتطور الذي يستطيع أن يتعامل مع هذه الوسائل المتطورة، وحينما تغير الوسائل بدون تغيير العقلية فإننا نكون قد غيرنا ذوق الإنسان ورغباته فقط»³.

وعلى الرغم من التقدم العلمي والتقني الذي يميز الحضارة الغربية إلا أن شريعتي لا يعتبرها النموذج الأفضل، ولا يجعل الاقتداء بها محققاً للنهضة داخل الشعوب الإسلامية وهذا راجع لاعتبارات ثلاثة :

1 - تهيمش الإنسان:

¹ - علي شريعتي، المصدر نفسه، ص 94

² - مالك بن نبي، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، ترجمة بسام بركة وأحمد شعبو، دار الفكر المعاصر، بيروت، دار الفكر، دمشق، ط 1، 1988، ص 41

³ - علي شريعتي، تاريخ الحضارة، ص 94-95

تكمّن معضلة الحضارة المعاصرة في جهلها بالإنسان رغم كل التطور والنبوغ والرفاهية التي حققتها¹. وهذا لا يتوافق مع مسار الإسلام الذي خاطب الإنسان بصفته خليفة الله في الأرض. كما أن «استقلال الحضارة عن الإنسان كان السبب في ضعف عمر الإنسان وضعف قدرة الحضارة، وكذلك ضعف قدرة التمرد والعصيان عند الإنسان، والتي تكون موجودة عادة عنده بالفطرة، ومن الممكن أن توجد العصيان في الآلة، والتي من فطرتها وطبيعتها أن تكون مطيعة وخاضعة لسيطرة الإنسان»².

2 - سيادة ثقافة الاستهلاك:

إذ أن «جميع المحاولات و المساعي المعنوية التي يبذلها الفكر البشري تستهدف في الحقيقة التصنيع، وهدف التصنيع الإنتاج والاستهلاك. بمعنى أنّ جميع المحاولات والمساعي المعنوية العميقة المقدسة العقلية والمنطقية تنكسر في تنويع الاستهلاك وتوسيعه، ولهذا نلاحظ أن مدينة اليوم مدنية استهلاك ليس إلّا، وأصالة الاستهلاك أهم معلّم من معالم الحضارة المعاصرة»³، وهي ميزة تجاوزت حدود العالم الغربي وامتدت إلى العالم الإسلامي أيضاً⁴، خاصة في ظل غياب التصنيع والإنتاج الخاص به في معظم الدول الإسلامية، وإن كانت القضية في ظاهرها مرتبطة بالاقتصاد، إلا أنّها في الحقيقة تعبير غير مباشر عن العجز الحضاري التام، والذي تكون آثاره وخيمته على كافة المجالات. فالיום «لا يمكن لبلد صغير أن يقف أمام هذه الحضارة الكبيرة، ولا يمكنه أن يمنع نفسه عن استهلاك البضائع الجديدة أيضاً. بمعنى أن إرادة الإنسان أصبحت تابعة للجبر الحضاري وللآلة اليوم. وحتى أصحاب رؤوس الأموال أصبحوا أسرى للأموال وليس الأموال أسيرة في أيديهم»⁵.

3 - استبعاد القيم الإنسانية والدينية والأخلاقية:

كانت هذه القيم بمثابة المحرك الأساسي للحضارة الإسلامية، واستبعادها هو تشويه لمنظومتها الفكرية التي تشكل القاعدة الأساسية في البناء الحضاري باعتبارها البنية التحتية لها بتعبير شرعي، لأن «ما كان يسد الطريق على الغرب ويحفظ الشرق، فهو الالتزام، القيم الإنسانية، التقاليد والدين»⁶.

وخلاصة الأمر أن «هذه لا تسمى حضارة، لأنها تجعل من الإنسان إنساناً فاسداً»⁷. فالحكم على الحضارة قيمياً متعلق بما تقدمه للإنسان على الجانب المادي والمعنوي أيضاً، لأن الهدف من عملية التحضر ككل هو خدمة الإنسان والارتقاء به وتحسين حياته

¹ - علي شريعتي، الإمام علي في محنة الثلاث، ترجمة علي الحسيني، دار الأمير للثقافة والعلوم، بيروت، مؤسسة نشر آثار الدكتور علي شريعتي، طهران، ط1428، 2-2007، ص 19-24

² - علي شريعتي، تاريخ الحضارة، ص449

³ - علي شريعتي، الإمام علي في محنة الثلاث، ص16-17

⁴ - من أجل المزيد من التفاصيل حول نقد شرعي لثقافة الاستهلاك سواء في المجتمعات الشرقية أو الغربية، ينظر علي شريعتي، فاطمة هي فاطمة، تر هاجر القحطاني، دار الأمير، بيروت، ط2، 2007، ص 87-91

⁵ - علي شريعتي، تاريخ الحضارة، ص449

⁶ - علي شريعتي، فاطمة هي فاطمة، ص112

⁷ - علي شريعتي، تاريخ ومعرفة الأديان، تر حسين النصيري، دار الأمير، بيروت، ط1، 2008، ص399

بالانتقال إلى وضع أفضل. لذلك يرى شريعتي أنه حينما «تخرج الحضارة من القيود ومن عباد المال والنقود وتصبح تحت أيدي وتحت اختيار أصحاب الشعور والأخلاق من الناس، فسوف تصبح وسيلة لتكامل الإنسان وليس وسيلة للتخريب والفساد، وإذا صارت الإنسانية والفضيلة وجميع الأشياء فداء للحضارة، فسوف نرى أن الحضارة ستكون بأيدي غير المتحضرين»¹. وبالنظر إلى وضع الأمة الإسلامية الآن، فإنه مشابه حسب شريعتي لوضع أوروبا أواخر القرون الوسطى وأوائل القرون الحديثة، حيث كانت فترة انتقال بين المرحلتين²، وهذا لا يعني أن الأمة الإسلامية لا تمتلك مقومات الانتقال إلى عصر النهضة الخاص بها وفق تجربتها الذاتية، لا حسب نمط الانتقال الغربي من القرون الوسطى إلى التجربة الحضارية المعاصرة التي خاضها، من دون إهمال القطيعة مع القاعدة الفكرية للقرون الوسطى والمتمثلة في الدين، وتعتبر هذه النقطة محورية في الفرق بين قاعدة البناء الحضاري وأولوياته بين الحضارة الغربية من جهة، وبين الحضارة الإسلامية من جهة أخرى.

ويشير شريعتي إلى أن التغيير الذي انتقل بأوروبا من القرون الوسطى إلى القرون الحديثة يقوم على أساسين:

الأول: اقتصادي: حيث حلت البرجوازية محل الإقطاع، وقد تم هذا من خلال اتصال الشرق بالغرب، والتجارة والحروب الصليبية، اكتشاف قارة أمريكا... وكان النظام الإقطاعي قبل سقوطه يحمي الرجعية والتخلف، ويحافظ على الوضع الراهن. وحتى من خلال تتبع نسب توزيع البروتستانت والكاثوليك فإن شريعتي وصل إلى نتيجة تقوم على أن الدول التي يغلب عليها البروتستانت أكثر تقدماً ورقياً من تلك التي يشكل الكاثوليك معظم سكانها. يقول: «رأينا أن البلدان التي حوّلت عامل الدين من صورته الرجعية إلى صورة خلاقة راقية وانتقادية قد حصلت على التقدم؛ وأن البلدان التي لا زالت تحافظ على الكاثوليكية بقيت في حالة القرون الوسطى»³.

الثاني: فكري: ويتجلى هذا من خلال إحلال البروتستانت محل الكاثوليك، بحيث أن المفكر هنا لم ينكر الدين وإنما جعله محركاً وبناءاً للمجتمع، ونقله من التمسك بالآخرة إلى التمسك بالدنيا، ومن الانشغال بالرياضة الروحية إلى العمل البناء، ومن الفردانية إلى حب المجتمع⁴.

لذلك فاستعارة التجربة الغربية غير ممكنة لاختلاف المنطلقات بين الحضارتين، وهو ما يجعل صناعة نموذج إسلامي مطلباً حضارياً ضرورياً، من أجل تجاوز مرحلة الركود والانتقال إلى مرحلة الفاعلية الحضارية، ولا يتم هذا إلا باستغلال المكونات والطاقات الروحية والمادية التي تزخر بها هذه الأمة، ناهيك عن استعادة الإنسان من براثن الاستلابين التراثي من جهة، والحداثي من جهة أخرى. وهو ما

¹ - علي شريعتي، المصدر السابق، ص 399

² - علي شريعتي، مسؤولية المثقف، تر إبراهيم الدسوقي شتا، دار الأمير، بيروت، ط 2، 2007، ص 157

³ - علي شريعتي، مسؤولية المثقف، ص 160

⁴ - علي شريعتي، المصدر السابق، ص 157-161

يجعلنا نتحدث عن النموذج الذي طرحه شريعتي لتجاوز الأزمة الحضارية لأمة قدمت صورا حضارية عظيمة للتجربة الإنسانية ككل. لذلك وجب التطرق إلى المقومات التي تبني الحضارة عند شريعتي وتقييم رؤيته من خلال ذلك.

ثانيا: مقومات الحضارة عند علي شريعتي

يختلف التأسيس الحضاري من أمة إلى أخرى، ويرجع ذلك إلى مكونات هويتها وإرثها الثقافي، وفق ما تقتضيه مصلحة الإنسان في بيئة وزمان معينين، وهو ما يمنح الحضارة منحى قوميا وعرقيا ودينيا في الكثير من الأحيان. لذلك فالحضارة لا تستورد، بل يجب أن تنتج من داخل البنية الداخلية بما تحتويه من مجتمع واقتصاد وتشريع وفكر ومنظومة أخلاقية ...

وما قام به شريعتي هو استقراء تاريخ الحضارات الإنسانية المختلفة والمقارنة بينها، ولا ينبغي هذا على عرض المعطيات التاريخية وسردها، بل بالغوص في قوانينها ومتغيراتها، ومختلف الجوانب التي تشكلها من دين واقتصاد ومجتمع.. إضافة إلى البحث في أسباب التطور والانحطاط، مع ربط ذلك بروح الحضارة المعاصرة، باعتبارها امتدادا لسابقتها. وبالنظر إلى تاريخ الحضارة الإسلامية بكل ما ترخر به من شخصيات فاعلة غيرت مجرى التاريخ، فإن شريعتي قد قدمها كنماذج إنسانية خالدة، من دون إغفال الهزائم التي منيت بها الأمة الإسلامية حضاريا، خاصة إفلاسها أمام المد الغربي في العصر الحديث.

ويمكن تقسيم مظاهر الأزمة الحضارية للأمة الإسلامية إلى مستويين:

الأول: داخلي: وهو ما تجلى في الفرقة والتعصب المذهبي، وما أنتجه شيوع التقليد والاكتفاء بآثار السابقين من جمود على مستوى الاجتهاد، إضافة إلى غياب النقد والمراجعة والمساءلة بخصوص تناول المسائل الدينية والحضارية، ويمكن اختصاره في الفكر الديني السلبي أو سوء استغلال الدين والانتقال به من كونه عامل نهضة إلى جعله عامل ركود وتخلف ...

الثاني: خارجي: وقد تجلى من خلال تبني الأنموذج الحضاري الغربي، وتقليده والتبعية له، ناهيك عن الاستعمار وما ترتب عنه من آثار عنيفة، خاصة وأن تحققه مقترن بالضعف والانحطاط على كافة الجوانب التي تشكل الوجه الحضاري لكل أمة، ولا يتعلق هذا بالحملات العسكرية المباشرة فقط، بل إن خطره من خلال الثقافة وتكريس التغريب أشد.

وبالنظر إلى مشروع شريعتي ككل فإنه في قراءته للأزمة الحضارية ينطلق من الماضي ليصل إلى الحاضر، باعتبار الإشكالات المعاصرة امتدادا لسابقتها في عصور ماضية، وهو ما يجعل إعادة قراءة الموروث الحضاري الإسلامي مطلباً ضروريا لتجنب استحضارها في أزمنة غير مناسبة، مما يجعل آثارها على الواقع المعاصر كارثية بآتم معنى الكلمة، ما يعني الانتقال من النموذج الموجود إلى محاولة بناء النموذج المطلوب، وهذا خاضع لتصورات المفكر ورؤيته الحضارية.

ولتجاوز الفصام بين الماضي والحاضر من جهة، وبين الموجود والمطلوب من جهة أخرى، انطلق شريعتي من بناء الإنسان ليصل إلى بناء الحضارة، وهي ميزة تعبر عن عمق الطرح، ووضوح الرؤية، باعتبار الإنسان هو الركيزة الأساسية في عملية التغيير الحضاري. لذلك اعتبر المطلوب هو «أن نكرس كل طاقاتنا في سبيل أن نكتشف الإنسان أولا ونعرفه، أي موجود هو؟ وماذا يحمل من صفات وخصائص؟ وما هي حاجاته الرئيسية وضروراته الأولية الأصلية؟ وما هي أبعاده المتنوعة؟ نعرف كل هذا قبل أن نبني الحضارة ونحدد المناهج العلمية، وقبل أن نعين للعلم والفلسفة رسالة خاصة، ثم ننطلق على أساس معرفة حياة الإنسان لنقرر البرامج ونخطط لبناء

الحضارة ونحدد رسالة العلم»¹، لأن الإنسان هو «كائن مسؤول عن مصيره، بل ليس مسؤولاً عن مصيره فقط وإنما مسؤول عن أداء رسالة الله في العالم، وهو حامل الأمانة في الكون والطبيعة، فهو قد تعلم الأسماء، والأسماء معناها الصحيح في رأيي الحقائق العلمية المختلفة، لأن الاسم علامة كل شيء، أي الوجه المشخص لكل مفهوم، وعليه فإن تعليم الأسماء لآدم - من قبل الله - يعني إدراك وفهم الحقائق العلمية والقابلية التامة لفهم المعاني الموجودة في العالم»²، وبالتالي فكون الإنسان خليفة الله في الأرض متعلق بما أودع الله تعالى فيه من ملكات وقدرات تجعله مضطرباً بهذه المهمة، ولا يتحقق ذلك إلا بعبادة الله وعمارة الأرض وهما أساس الخلافة. وإن كانت العبادة وفق ما أوجبه النصوص الدينية المقدسة، فإن العمارة تشمل ما يشكل حياة الإنسان ككل من معرفة وسياسة واجتماع واقتصاد وغيرها، ولا تتعلق فقط بالجانب المادي الذي يشكله العمران بمفهومه المعاصر. وبالتالي فإن رؤية شريعتي تراعي الخصوصية القرآنية في تناولها للإنسان - بصفته خليفة الله في الأرض - وهذه المكانة تحمل معنيين: التكليف والتشريف، فالأول نابع من قدرة الإنسان على تحمل المسؤولية في هذا الكون، والثاني متعلق بصفته الكائن الذي نفخ الله فيه من روحه، وهما مكمّلان للتشريف. لكن ما يعيق تحقق الإنسان بما تقتضيه مهمته كونه واقعاً في سجون أربعة:

الأول سجن الطبيعة: وهذا السجن في معناه العام منصب حول خضوع الإنسان لقوانين الطبيعة وسننها، كما هو حال جميع الكائنات الأخرى في هذا الكون.

الثاني سجن التاريخ: فيكون الإنسان أسير التاريخ لأن تبعات الماضي تترك أثراً على شخصية الإنسان وهويته الحاضرة.

الثالث سجن المجتمع: فالنظام الاجتماعي وطبيعة العلاقات الطبقية والاقتصادية والسياسية الحاكمة على هذا المجتمع، والتحوليات التي تحدث في داخله، تترك آثارها على تكوين الفرد النفسي والذهني.

الرابع سجن النفس: واعتبره شريعتي أشد السجون وأمنعها، إذ تحبس في داخلها تلك الأنا الإنسانية الحرة وتشغلها عن المطالب السامية.

أما التحرر منها فيتم بالعلم؛ فبالعلوم الطبيعية يمكننا التحرر من أسر الطبيعة وسجنها... وعن طريق فلسفة التاريخ وعلم الاجتماع القائم على المنهج العلمي، وكشف القوانين والسنن التاريخية، يمكننا وإلى حد ما التحرر من أسر الجبر الاجتماعي والجبر التاريخي، ووحده العشق قادر على أن يحررنا من ذلك السجن الرابع³. فالإنسان يتحرر من سجنه بقدر ما يكتسبه من علم، «وبذلك تزداد قدرته وإرادته وتتحقق الرسالة والإرادة الإلهية التي يسعى إليها وهي نشأة مخلوق شبيه به (سبحانه وتعالى) يستخلفه في الأرض»⁴. مع التركيز على أهمية تجاوز سجن الذات، لأن «الأشخاص الذين غيروا مجرى التاريخ كانوا قد تحرروا من

¹ - علي شريعتي، الإمام علي في محنة الثلاث، ص 23

² - علي شريعتي، الإنسان والإسلام، تر عباس الترجمان، دار الأمير، بيروت، ط 2، 2007، ص 24-25

³ - علي شريعتي، الإمام علي في محنة الثلاث، ص 102-104

⁴ - علي شريعتي، الإنسان والتاريخ، تر خليل علي، دار الأمير، بيروت، ط 2، 2007، ص 93

سجون ذواتهم أولاً. «وللتخلص من السجن الرابع، سجن الذات، يجب التسلح بالعقيدة لا بالعلم»¹. باعتبار أن «العلم يخدم الإنسان فقط من دون أن يحمل على عاتقه أيّ مسؤولية لإرشاده وإسعاده وإصلاحه... في حين أن رسالة العلم الأكثر قدسية وفورية، ومسؤوليته الأولى المقدمة على أيّ مسؤولية أخرى إنما هي إصلاح الإنسان ومعرفة الإنسان»².

وبذلك يكون البناء الإنساني للحضارة متعلقاً بالعلم والعقيدة، لأن تحرير الإنسان من سجنه هو ما يمنحه القدرة على تحقيق النهضة وامتلاك الأدوات اللازمة لفعل ذلك. ما يعني أن عملية البناء الحضاري في رؤية شريعتي تقوم على الدين كعامل رئيسي ولا تحمل بقية الجوانب العلمية وحتى التقنية. فالإنسان «يحتاج إلى دين لا يصرفه إلى النزعة الأخروية البحتة، ولا إلى النزعة الدنيوية المطلقة، بل يحقق له التعادل والتوازن، أي أنه بحاجة إلى دين ذي بُعدين حتى يساعده على تنفيذ مسؤوليته الإنسانية»³، والدين ذو البعدين يؤثر على الإنسان ذو البعدين أيضاً، باعتبار أن خلقته كانت مزجاً من الطين كمادة، ونفخة الله في الإنسان كروح، وهذه التقسيمات الثنائية نجد ورودها في توظيف شريعتي في سياقات مختلفة، لكن ما يجمعها هو البحث عن تحقيق التوازن، وهذا خاضع لمواضع ورودها. وعليه «ينبغي أن ننظر إلى الإنسان كإرادة ذات دخل، وكعامل يستطيع أن يغير قدره التاريخي باستعداده الإلهي: العلم والخلقية، ومن هنا فإن الوعي فحسب هو الذي يستطيع أن يغير المصير، ويغير مسيرة التاريخ وفق هوى الإنسان»⁴. لأنه «الوحيد الذي يتمتع بخصلة الاختيار من بين سائر الموجودات وهو يحاكي الله في هذه الصفة، ولا أقول يماثله فيها بالشكل والمقدار. ولعل الشيء الذي نفخه الله من روحه في هيكल الإنسان هو تلك الإرادة والحرية والاختيار»⁵، وهو ما يتيح له إمكانية تسخير الكون واستثماره، والتكيف مع قوانينه وسننه.

وتجدر الإشارة إلى أن شريعتي قد قام بصياغة رؤيته للحضارة وفق المفهوم الإنساني وحاكمها إليه، ويتجلى هذا من خلال وصف الآثار التاريخية العظيمة للحضارات القديمة كالأهرامات المصرية وسور الصين العظيم بنماذج من الحضارات الكاذبة والخداعة لأنها بنيت على أشلاء الضعفاء⁶. وهو ما تبرزه أيضاً رسالته المعنونة بـ "نعم هكذا كان يا أخي"⁷ في ذات السياق، باعتبار أن بعض المظاهر التي عبرت عن عظمة الحضارات السابقة عبرت أيضاً عن إبادة جماعية وسلوكات لا إنسانية في حق الفئات الضعيفة من الناس، ما يجعل مفهوم الحضارة في هذه الحالة متجاوزاً الجانب العمراني والاقتصادي إلى الجانب القيمي والأخلاقي.

1 - علي شريعتي، المصدر السابق، ص 99

2 - علي شريعتي، الإمام علي في محنة الثلاث، ص 18

3 - علي شريعتي، الإنسان والإسلام، ص 31

4 - علي شريعتي، العودة إلى الذات، ص 127

5 - علي شريعتي، معرفة الإسلام، تر حيدر مجيد، دار الأمير، بيروت، ط 2، 2007، ص 213

6 - علي شريعتي، تاريخ ومعرفة الأديان، ص 379

7 - نعم هكذا كان يا أخي: هكذا عنون شريعتي رسالته وهو يخاطب قبور العبيد قرب الأهرامات المصرية، وهي تعبر عن تغير وجهة نظره بخصوص آثار الحضارات السابقة، إذ أنه كان يراها كروائع للحضارة الإنسانية بقيت شاهدة على قوتها وجمال معمارها وتميزها، لكنه بعد زيارته للمقابر التي دفن فيها العبيد الذين شيدوا أهرامات الفراعنة غير رؤيته تماماً. وللإطلاع على الرسالة ينظر: علي شريعتي، دين ضد الدين، تر حيدر مجيد، مؤسسة العطار الثقافية، د م ن، ط 1، 2007، ص 86-115.

إن التغيير الاجتماعي خاضع لمدى فاعلية الفرد والجماعة أيضا، «وذلك على أساس ما هو موجود في صميم الإنسان والمجتمع من سنن وقوانين، وليس هناك تغيير وتحول اجتماعي إلا وهو منوط بإرادة (الناس) ونزعاتهم، ويشكل نتيجة طبيعية لسلوكهم وسيرتهم العامة التي تسير بموجب سنن معينة لا تتبدل. ولكل واحدة من تلك السير والنزعات والإرادات نتائج وآثار قطعية على الصعيد التاريخي أو الاجتماعي، وذلك عبر المعادلة التالية:

الناس + السنة = بناء المجتمع وحركة التاريخ¹، وما يصدق على ذلك من أي الذكر الحكيم، قوله تعالى: "كل نفس بما كسبت رهينة"²، وهذا على مستوى الفرد.

وقوله أيضا: "إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم"³، وهذا على مستوى المجتمع ككل.

وبالتالي فشريعتي ركز على أهمية الإنسان بمعرفته ومعرفة خصائصه وقدراته التي جعلته قادرا على حمل الأمانة بالتعبير القرآني، لكنه في عملية التغيير الاجتماعي ركز على مفهوم الجماعة بدلا من الفرد، وهو ما أنتج استعمال مصطلح الناس بدلا من الإنسان كما ورد في الاستشهادات السابقة، وهذا يدل على أن عملية التغيير لا تتم إلا بتحمل المسؤولية الاجتماعية والعمل الموحد من أجل تحقيق ذلك، ولا ينقص هذا من جهود الأفراد ولكنه يعلي من قيمة الجماعة ويعيدنا إلى السياق القرآني مجددا بالرجوع إلى الناس، وإلى الأمة وهو مفهوم أصيل بوصفه عاملا من عوامل البناء في الحضارة الإسلامية. هذا من جهة.

ومن جهة أخرى فإن «التغيير والتحول الاجتماعي ليس معلولا للمشيئة الإلهية، بل هو معلول للتحولات الأخلاقية والروحية التي تمر بها المجتمعات، والمشيئة الإلهية هي التي اقتضت هذا النحو من العلوية والارتباط الذي هو بدوره سنة من السنن»⁴، وما يقصده شريعتي شريعتي بالسنن هي «القوانين الاجتماعية والإنسانية الخارجة عن سلطة المؤرخ وعالم الاجتماع. فكما أن حياة الحيوان لها قوانين تجري عليها وكذلك النباتات والطبيعة الجيولوجية للأرض، فإن المجتمعات البشرية لها سنن ونواميس لا تؤثر فيها بطولات الأبطال ولا معاجز الرجال»⁵. لكن «لو اعتبرنا أن السنن هي التي تعمل وتؤثر وحدها في الكون، فهذا يعني أننا اعتبرنا الكون مكنة عظيمة تعمل بلا روح ولا إرادة، بينما الكون ليس كذلك، إنه موجود حي عالم ومريد، يشعر ويفكر ويقرر ويستجيب ويؤثر، كالإنسان، وحسب التعبير القرآني (كل يوم هو في شأن). وتلك بحد ذاتها سنة أخرى تبني على منطق وحكمة. وليس ذلك مجرد حقيقة تتسق مع الواقع، بل هو اعتقاد ورؤية كونية ثابتة وشاملة، تمنح الإنسان عمقا وقيمة، وتعطي لحياته هدفا ومعنى، وهذا شيء آخر بات اليوم مطلبا حياتيا ملحا للغاية»⁶.

¹ - علي شريعتي، معرفة الإسلام، ص 94، 102.

² - المدثر/ 38

³ - الرعد/ 11

⁴ - علي شريعتي، معرفة الإسلام، ص 103

⁵ - علي شريعتي، معرفة الإسلام، ص 90، وينظر أيضا علي شريعتي، منهج التعرف على الإسلام، تر عادل كاظم، دار الأمير، بيروت، ط2، 2007، ص 47-48

⁶ - علي شريعتي، معرفة الإسلام، هامش ص 89

وإن كان الناس لا يستطيعون تغيير السنن التاريخية والكونية إلا أنهم بفهمها وتتبع سيرورتها يمكنهم بذلك استغلالها، إذ أنه «كلما كان الناس أكثر علما بالحمية التاريخية والقوانين العلمية للحياة والحركة الاجتماعية وبنية مجتمعهم، وكلما نضج وعيهم الذاتي الإنساني والاجتماعي والطبقي نضجا علميا وصحيحا، سوف تكون لديهم القدرة أكثر على تحطيم الحمية التاريخية والطبيعية الاجتماعية التي فرضت عليهم قسرا وفي غفلة منهم، وسوف يجعلون من العلل التي صنعت حتميتهم الفكرية والاجتماعية والأخلاقية والسياسية والطبيعية معلولة لإرادتهم الواعية الخلاقة والمبدرة والطموحة إلى المثل، ومن هذا الطريق فحسب يستطيع الناس - أي أولئك الذين صنعوا في المجتمع على غفلة منهم أن يصبحوا الصناع الواعين في المجتمع»¹.

ومن خلال استقرار مؤلفات شريعتي فإن كانت عملية البناء الحضاري تقوم على الناس والسنن والتفاعل بينهما، فإنها مرتبطة بأداتين إن صح هذا التعبير، وهما بمثابة الإطار العام الذي يحكم هذه العملية، وهما التوحيد والعمل.

1- علاقة التوحيد بالحضارة

انطلق شريعتي من اعتبار أن «العقيدة هي التي تبني النظام أو الوضع المطلوب في المجال الإنساني والاجتماعي والفكري والمادي، مقابل نظام الوضع الموجود، وهي التي تبين للإنسان المسافة أو الفاصلة الموجودة بين الوضع الموجود والوضع المطلوب»²، والتالي فإن تحقق أي نهضة في الإسلام مرتبط بالعقيدة، بوصفها عاملا حيا يمنح الحركة في المجتمعات، والنماذج التاريخية كثيرة في هذا المجال. خاصة وأن حاجة المجتمعات الإسلامية إلى الدين شديدة، يقول: «إذا كان سوق المذهب قد كسد، فذلك ينسب إلى الافتقار إلى اللغة والرؤية والاستدلال بالقدر المطلوب. وإلا فإن الحاجة إلى الدين وقلق العثور على الحقيقة لم يكن شديدا في يوم من الأيام بقدر ما هو اليوم حتى في مجتمعنا المتخلف ثقافيا»³.

لكنه ركز على التوحيد بصفة خاصة، لكونه «عبارة عن نظرة كونية تبعث وحدة الوجود في فكر الإنسان، وتدوب فيه جميع الأقطاب المضادة وسلسلة المراتب في العالم، ويبقى هناك إله واحد موجود، وهدف واحد، وإرادة واحدة»⁴، وبالتالي فالتوحيد «هو أساس الحياة الفردية والاجتماعية، مادية ومعنوية، وعبارة أخرى أنه الوجه المشترك في جميع أنحاء الحياة الإنسانية من أفكار وأفعال ومشاعر وأحاسيس على اختلاف أشكالها وكيفياتها»⁵، والجدير بالذكر أن شريعتي لم يتناول التوحيد باعتباره جوهر العقيدة الإسلامية فقط، بل ربطه بالجانب الاجتماعي ووظفه فيه، وفي المقابل لم يجعل الشرك بالله أمرا دينيا خالصا بل ربطه بالجانب الاجتماعي في السياق ذاته، وبالتالي فمقدار تحقق التوحيد ليس مرتبطا بعلاقة الإنسان بربه فقط، بل بعلاقة الإنسان بأخيه الإنسان أيضا، إذ أن اللامساواة والظلم وغياب العدالة الاجتماعية، وتكريس الطبقة هي مظهر من مظاهر الشرك التي تنافي التوحيد. وهذا يمنح العقيدة

¹ - علي شريعتي، العودة إلى الذات، ص 443

² - علي شريعتي، تاريخ الحضارة، ص 258

³ - علي شريعتي، التشيع مسؤولية، تر إبراهيم الدسوقي شتا، دار الأمير، بيروت، ط 2، 2007، ص 64

⁴ - علي شريعتي، تاريخ ومعرفة الأديان، ص 589

⁵ - علي شريعتي، معرفة الإسلام ص 143-144

الدينية فاعلية حقيقية بتوظيفها في السياق الاجتماعي، لأن المطلوب هو جعلها قادرة على إيقاظ الوعي، ولا يتم هذا إلا بتناولها في كل ما يخص حياة الإنسان عموماً، بينما ربطها بالعقيدة وحدها هو عزل لها، وهذا العزل هو الذي جعل الفكر الديني عاجزاً أمام الإنسان المعاصر وما يعترضه من إشكالات. فالحديث عن الحضارة وإشكالاتها هو نوع من التفاعل مع إشكالات الواقع، وهو ما لم يهمله شريعتي، حيث ارتكزت رؤيته على الدين، الذي لا يعتبره عاملاً مهماً في عملية التغيير الحضاري، بل إنه وفي السياق الإسلامي الأساس الذي لا يتم هذا الفعل إلا به. من حيث قدرة الدين الإسلامي على مواكبة التغيرات التي تشهدها المجتمعات التي تعتنقه، فكونه ديناً مرناً يوازن بين متطلبات الإنسان المادية والمعنوية من جهة، وبين كونه يوازن بين الدنيا والآخرة من حيث الأعمال والمآلات، يجعل من الإنسان وهو خليفة الله في الأرض بالتعبير القرآني، من يمتلك القدرة على البناء الحضاري.

2- قيمة العمل في البناء الحضاري

ركز شريعتي في تناوله للمسألة الحضارية على قيمة العمل أيضاً، مع الأخذ بعين الاعتبار كونه لا يفصل بين العمل الديني والعمل الفكري والعمل الاقتصادي... « ففي الأساس ينبغي أن تنعكس رؤية التوحيد على لغتنا. والمقصود باللغة اللغة الفكرية والفلسفية، وهناك نقطة في غاية العمق في الإسلام، وهي أن كل عمل صالح - اقتصادياً كان أو سياسياً أو صحياً أو في سبيل الناس - يفسر كنوع من العبادة الدينية»¹. وهو ما يصدق على النبي عليه الصلاة والسلام وصحابته الكرام وآل بيته الأطهار، من خلال سيرهم التي تعبر عن كون العمل عبادة، وهو ما تبينه آي الذكر الحكيم من خلال تكرار ورود "العمل الصالح" في القرآن الكريم من خلال مضامين متعددة، وهذا يدل على أهميته. وفي بيان مفهوم العمل الصالح عند شريعتي يقول: «والعمل الصالح في الإسلام على خلاف التصور الديني الذي نفهم به هذا المصطلح اليوم، فهو ليس العمل الديني فحسب، بل هو في نفس الوقت العمل المادي والعمل الإنتاجي. فإذا تحدثنا عن العمل الديني والعمل الفكري والعمل الاقتصادي، فليس هذا إلا لتحدث بلغة العصر، وإلا ففي الإسلام ولغة الإسلام لا توجد بينها فواصل و حدود»². وبمعنى آخر يقاس صلاح العمل بمقدار ما يقدمه، وهذا لا يخص الأفراد ولكنه متعلق بالمجتمع ككل، لأن شريعتي في هذه المسائل يبيّن رؤيته وفق إطار كلي لا يهتمش الأفراد بوصفهم فاعلين اجتماعياً، لكنه يركز على الإطار العام الذي يجمعهم، لكون عملية التغيير الاجتماعي متعلقة بالجماعة أكثر منها بالفرد.

وانطلق شريعتي في إظهار قيمة العمل في الإسلام من خلال النماذج التي وظفها، فأعظم «قادة الفكر والأئمة الثوريين في الإسلام كانوا عمالاً»³، كما أن «العمل هو الذي يحمل الايديولوجيا من الحافظة والذهن ويغرسها في أعماق وجود الإنسان وفطرته، ويخلطها بطبيعته ويجعل منهما عجينة واحدة، وبهذا الشكل تتبدل الايديولوجيا إلى إيمان، ويتبدل المفكر إلى إنسان

¹ - علي شريعتي، بناء الذات الثورية، تر إبراهيم الدسوقي شتاء، دار الأمير، بيروت، ط2، 2007، ص52

² - علي شريعتي، المصدر السابق، ص51-52

³ - علي شريعتي، المصدر نفسه، ص71-72

مؤمن، مؤمن بكل ما تحتويه هذه الكلمة من عمق وسعة وثراء»¹. والدليل على ذلك أن الإسلام لا يفصل بين الإيمان والعمل، إذ لا يكون المسلم مؤمناً إلا بتحقيق الإيمان قولاً وفعلاً.

كما أن الكتاب والعمل كلاهما يؤثر في بنية الإنسان. فالكتاب يجعل العمل مصحوباً بالوعي الفكري والقدرة على تحليل التجارب التي قام بها أناس آخرون، وعبريات أخرى والاستفادة منها. أما العمل فيثبت الفكر على أرضية الواقع ويصحح مساره².

ثالثاً: نتائج الرؤية الحضارية لعلي شريعتي

إن توظيف شريعتي للدين باعتباره القاعدة الأساسية لعملية البناء الحضاري يضعنا أمام جهوده في إصلاح الفكر الديني، إذ أن الدين الذي تحدث عنه وروج له في محاضراته ومؤلفاته غير الدين السائد الذي تناوله بالنقد سواء منه في الجانب التاريخي أو التشريعي أو ما تعلق بالمؤسسة الدينية عموماً، وهذا ما أنتج مؤلفات من قبيل دين ضد الدين، التشيع العلوي والتشيع الصفوي على سبيل المثال لا الحصر. واستناداً على هذا فإن الدين القادر على بناء الحضارة وتبنيها هو إسلام الرسالة، إسلام القرآن.. لذلك فإن النقد الذي قام به جعل الفكر الديني الإسلامي في مساءلة أمام نفسه، مبيناً مواطن الاختلال ومقدماً رؤيته الخاصة التي تراعي خصوصية الدين الإسلامي وتنطلق منه سواء في بناء الفرد أو المجتمع أو الحضارة، لأنه يمتلك مقومات البناء، وهذا ما أثبتته رسالة القرآن الكريم وسيرة المصطفى عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم. بينما الدين الذي صُنِعَ من طرف تحالف المؤسسة الدينية والسلطة السياسية، والذي غذته الانقسامات المذهبية والجمود الفكري كان أحد عوامل الانحطاط الذي أصاب الأمة الإسلامية، والذي صنع إنساناً ما بعد الموحدين بتعبير المفكر مالك بن نبي.

لذلك ومن أجل تجاوز الأزمة الحضارية الراهنة ينبغي حسب رؤية شريعتي بناء نموذج خاص ينطلق من الدين والهوية الثقافية الإسلامية لا محاكاة النماذج المطروحة خاصة النموذج الغربي، الذي لا يزال معبراً عن الاستعمار ولكن بطرق مختلفة. مع التركيز على فهم القوانين التي تبني التاريخ والمجتمع والكون أيضاً لاستثمارها لا للخضوع لها. يقول شريعتي: «علينا أن نسعى لتطوير فكرنا، وأن نعطي لمجتمعنا وإنساننا العلم والعقيدة والإيمان، حتى نقوم بعمل معجزة داخل مجتمعنا، وبهذا نحصل على أسباب الحضارة من داخل مجتمعنا نفسه، وليس من مجتمع آخر»⁽³⁾.

إن الرؤية الكونية التوحيدية لعلي شريعتي تنبني على التوحيد كقاعدة وتنطلق منه لبناء الإنسان والمجتمع، ولا يتم هذا إلا بتنقية الفكر الديني مما علق به من ترسبات تاريخية لا يزال استحضرها سبباً في ركود الفكر الديني وانغلاقه أمام نفسه وأمام الواقع أيضاً. كما أن انفتاح الدرس العقدي على أفق أرحب من شأنه أن يجعل فاعليته أشد، وهو ما قام به شريعتي من خلال شبكة مفاهيمية واسعة، فالتوحيد مثلاً باعتباره لب العقيدة الإسلامية أدرج في سياق اجتماعي وفسر بناءً على متطلبات الواقع، وهو أمر ضروري في عمليتي الإصلاح الديني والحضاري، لأن الفصل بينهما هو تهميش لدور الدين.

¹ - علي شريعتي، المصدر نفسه، ص 58

² - علي شريعتي، المصدر نفسه، ص 69

³ - علي شريعتي، تاريخ الحضارة، ص 96

خاتمة:

ويمكن تلخيص رؤية شريعتي للحضارة في النقاط الآتية:

- إن كون الإنسان قادرا على التغيير لا يعني كونه متجاوزا للقوانين التي يسير عليها الكون، بل إن تحقيق الحضارة الفعلي منوط بفهم هذه القوانين بداية ثم تسخيرها بعد ذلك، لأنها ثابتة ولا تحايي أحدا.
- مفهوم الحضارة يتجاوز الجانب المادي إلى القيمي والأخلاقي والسلوكي
- يحقق الأمن الفكري من خلال الانطلاق من الهوية الإسلامية والانفتاح على مختلف الهويات المغايرة بطريقة متوازنة لا استلاب فيها.
- استثمار البناء القرآني للإنسان والمجتمع من خلال التاريخ: (استخلاص العبرة، فهم السنن..)، ومن خلال القصص القرآني: (بوصفها النماذج التطبيقية الفعلية للدرس السابق).
- المقارنة بين الأنموذج الغربي والإسلامي في المعرفة والحضارة، لأن هذا يميلنا إلى مادية الحضارة الغربية، التي أسست على ميراث الفلسفة اليونانية، بينما تجمع المعرفة المؤسسة للحضارة في الإسلام بين المادي والروحي.
- التفريق بين الثقافة والحضارة من حيث كون «الثقافة تعتمد بصورة أكبر على القيم المعنوية، أما الحضارة فهي قائمة على المنفعة، والإنسان نفسه هو مصلح اجتماعي يمتلك قيما معنوية، وفي نفس الوقت هو يسعى إلى المنفعة»¹.
- «يجب أن يعيش المجتمع وفق أصول العقل والاقتصاد والعدالة، حتى يمكن لهذا الإنسان وهذا الفرد أن يكون حرا، وحتى يستطيع أن يصل كلما كانت عنده قدرة واستطاعة»².
- وخلاصة القول أن شريعتي قد حاول بناء فلسفته الحضارية استنادا على الرؤية الكونية التوحيدية، والحضارة فيها لا تقوم إلا بالدين، باعتبار بنائه للإنسان والمجتمع، وهذا الكلام لا يؤخذ على إطلاقه، لكونه خاصا بالدين الإسلامي. لذلك فإن تناول شريعتي لمسألة الحضارة لم يتم بمعزل عن تناول الظاهرة الدينية عموما، ومحاولته إصلاح الفكر الديني على وجه الخصوص. من دون إهمال دور العلم وفهم سنن التغيير في هذه العملية، وبالتالي فإن ما قدمه شريعتي هو إضافة مهمة للفكر الإسلامي، وهذا لا يعني الوقوف عنده، بقدر ما يعني فتح مجال التساؤل والمناقشة في مسألتين الدين والحضارة على ساحة الفكر الإسلامي، انسجاما مع روح القرآن الكريم ومتطلبات الواقع المعاصر.

¹ - علي شريعتي، تاريخ الحضارة، ص 263

² - علي شريعتي، تاريخ ومعرفة الأديان، ص 391-392

قائمة المصادر والمراجع

القرآن الكريم

1. علي شريعتي، الإمام علي في محنه الثلاث، ترجمة علي الحسيني، دار الأمير للثقافة والعلوم، بيروت، مؤسسة نشر آثار الدكتور علي شريعتي، طهران، ط1428، 2-2007.
2. علي شريعتي، الإنسان والإسلام، تر عباس الترجمان، دار الأمير، بيروت، ط2، 2007.
3. علي شريعتي، الإنسان والتاريخ، تر خليل علي، دار الأمير، بيروت، ط2، 2007.
4. علي شريعتي، بناء الذات الثورية، تر إبراهيم الدسوقي شتا، دار الأمير، بيروت، ط2، 2007.
5. علي شريعتي، تاريخ الحضارة، ترجمة حسين نصيري، دار الأمير للثقافة والعلوم، بيروت، مؤسسة نشر آثار الدكتور علي شريعتي، طهران، ط1428، 2هـ -2007م.
6. علي شريعتي، تاريخ ومعرفة الأديان، تر حسين النصيري، دار الأمير، بيروت، ط1، 2008.
7. علي شريعتي، التشيع مسؤولية، تر إبراهيم الدسوقي شتا، دار الأمير، بيروت، ط2، 2007.
8. علي شريعتي، دين ضد الدين، تر حيدر مجيد، مؤسسة العطار الثقافية، دم ن، ط1، 2007.
9. علي شريعتي، العودة إلى الذات، تر إبراهيم الدسوقي شتا، دار الأمير، بيروت، ط2، 2007.
10. علي شريعتي، فاطمة هي فاطمة، تر هاجر القحطاني، دار الأمير، بيروت، ط2007، 2.
11. علي شريعتي، مسؤولية المثقف، تر إبراهيم الدسوقي شتا، دار الأمير، بيروت، ط2، 2007.
12. علي شريعتي، معرفة الإسلام، تر حيدر مجيد، دار الأمير، بيروت، ط2، 2007.
13. علي شريعتي، منهج التعرف على الإسلام، تر عادل كاظم، دار الأمير، بيروت، ط2، 2007.
14. حسين مؤنس، الحضارة دراسة في أصول وعوامل قيامها وتطورها، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1978، ع1.
15. عبد الرحمن بن خلدون، مقدمة ابن خلدون، دار ابن الجوزي، ط1، 2010 .
16. مالك بن نبي، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، ترجمة بسام بركة وأحمد شعبو، دار الفكر المعاصر، بيروت، دار الفكر، دمشق، ط1، 1988.
17. ول ديورانت، قصة الحضارة، ترجمة زكي محمود، دار الجيل للطبع والنشر والتوزيع، بيروت، المنظمة العربية للتربية والثقافة والفنون، تونس، ج1، مج1.